

النزعة التفكيكية في قراءة التراث عند أدونيس (مقاربة تحليلية إبستمولوجية).

The deconstructionism of Adonis' heritage reading (analytical, epistemological approach).

بادي عبد السلام¹

تاريخ النشر: 2021 / 03 / 30	تاريخ القبول: 2020 / 10 / 10	تاريخ الإرسال: 2020/08/08
-----------------------------	------------------------------	---------------------------

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تجليات نزعة التفكيك في قراءة أدونيس للتراث العربي ثقافةً وأدبا ونقداً، وقد استعملت الدراسة مصطلح النزعة بديلاً عن مصطلح المنهج أو الاستراتيجية؛ لكون أدونيس يستخدم مصطلحات بدائل غير مصطلحات التفكيك؛ من قبيل الشفوية والكتابة والثابت والمتحول، على طريقة التأليف الحر؛ وهو في ذلك يستلهم بشكل واضح نزعة التفكيك كقوة إجرائية، ويكرس مفاهيمه ضمناً كما سيتضح.

الكلمات المفتاحية: القبول، التساؤل، الكتابة، الشفوية، التفكيك

Abstract:

This study seeks to reveal the manifestations of the trend of deconstruction in the reading of Adonis of Arab heritage culture, literature and criticism, and the study used the term tendency as a substitute for the term method or strategy; Because Adonis uses alternative terminology other than deconstruction terminology; Such as oral, writing, static, and convertible, in the manner of free authorship; In doing so, he clearly takes inspiration from deconstruction as a procedural power, and implicitly embodies his concepts as will be seen.

Keywords: acceptance, question, writing, oral, deconstruction.

*** **

المؤلف المرسل: عبد السلام بادي، badiabdo11@gmail.com

1 جامعة الحاج لخضر - باتنة - 1، badiabdo11@gmail.com

1. مقدمة:

منذ فجر النهضة العربية حتى وقتنا المعاصر هذا وأنا العربية المفكرة تراجع ذاتها التي ترى صورتها مشكّلة في تراثها؛ إما طلبا للجوء والحصانة ضد الآخر الوافد، وإما سعيا وراء الانفكاك طلبا للقطيعة كليا أو جزئيا مع هذا التراث، أو محاولة لفهم نُظم تشكّله فيما سميّ بالعقل العربي وأنظمة اشتغاله، وبين هذا السعي وذاك ينوس فعل المراجعة معتضدا على منهجيات قرائية متعددة؛ إحيائية و إسقاطية، وتاريخية، وحدائية، فبأي منهج قرائي قارب المفكر والشاعر والناقد السوري علي أحمد سعيد الذي يكنى عن نفسه بأدونيس المدونة الأدبية التراثية العربية كجزئية في بنية كلية هي بنية الثقافة العربية؟ وما المرجعية النظرية التي استند إليها؟ وكيف قام بتنزيل هذه المتصورات النظرية وتفعيلها على مستوى خطابه النقدي؟

تفترض هذه الورقة البحثية أنّ أدونيس من أقدر من تمثل نزعة التفكيك في مراجعته للمدونة التراثية؛ إذ تعامل معها كبنية كلية هي بنية الثقافة العربية؛ الصخرة الأمّ التي إليها تعود باقي البنى المختلفة، وقد قام بتفكيكها من الداخل وفق رؤية كلية شمولية لا تجزيئية.

إنّ هذه الدراسة - استدراكا على ما تقدم - لا تغني بوجه من الوجوه فعل اقتفاء لارتسامية مفاهيم التفكيك الفلسفية في الخطاب المراجعاتي للتراث العربي عند أدونيس؛ بقدر ما هي محاولة لتحليل كيفية إفادة أدونيس من هذه المفاهيم وأجرائها تطبيقا على المدونة التراثية العربية، علما أنّ الرجل يسلك في أغلب كتاباته مسلك التأليف الحر؛ فهو لا يحيل على مراجعه، ولا إلى الدراسات التي تناولت الموضوع الذي يشتغل عليه، وخاصة ما تعلق منها بالمرجعيات النظرية⁽¹⁾، وهو في خطابه النقدي يستعمل مصطلحات بدائل ظاهريا، ولكنها ضمنيا تكرر الرؤية التفكيكية في مقاربتها للنصوص.

أما عن منهج الدراسة؛ فإن الدراسة تندرج تحت ما يسمى بنقد النقد؛ انطلاقا من كونها تشتغل على خطاب نقدي وتتخذ موضوعا لها، ولأن الخطاب النقدي

هو خطاب معرفي بالأساس، الأمر الذي يجيز اعتبار (نقد النقد) - بحكم موضوع اشتغاله- درساً إبستمولوجياً لموضوعه المعرفة النقدية، حيث تتغيى الدراسة محاوره الأسس المعرفية النظرية التي يتأسس عليها هذا الخطاب، وتتحرى الآليات الإجرائية المنهجية المضمرة التي على معبر منها يبسط أدونيس خطابه النقدي، ويُزَل متصوراته النظرية.

2. إستراتيجية التفكيك و الخطاب النقدي الأدونيسي:

إن أول ما يعترض فرضيات التأسيس لهذه الدراسة هو أن أدونيس محسوب على تيار الحداثة العربية، على اعتباره من دعايتها منذ كتابه (الثابت والمتحول)، ومن جهة أخرى يعد التفكيك مقولة ما بعد حداثة/ما بعد بنوية، ما يجعل السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يستقيم أن يكون أدونيس تفكيكياً وحداثياً في آن ؟

الجواب هو أن الحداثة وما بعد الحداثة ليستا مرحلتين فكريتين تنقاسان بمقياس الزمن وفق تحقيب كرونولوجي دقيق، وإنما هما نزعتان فكريتان سجالتان، بحيث يمكن أن نعتبر بعض النماذج الفكرية ما بعد حداثة؛ وهي متقدمة زمنياً على النماذج الحداثية؛ كما هي الحال مع أفكار الفيلسوف الألماني فريدريخ نيتش (1844-1900)، والتي تعد ما بعد حداثة، حيث يعتبر (نيتش) المؤسس الأول لفكرة نهاية المركز حين أشهر سيف عبارته القاطع (لقد مات الإله)؛ رامزا بالإله إلى «عالم الأفكار والمثاليات والمطلقات والكليات والثوابت والقيم الأخلاقية»⁽²⁾ وكل فكرة متعالية تحتكر الحقيقة المطلقة.

إضافة إلى أن النقد العربي كان ولا يزال يتلقى النقد الغربي بتفاوت زمني كبير، حيث إنه تلقى الرومنسية الغربية إبان ذبوع الواقعية، وتلقى الواقعية في عز ذبوع البنيوية، وتلقى البنيوية في عصر رواج نقد البنيوية (ما بعد البنيوية)، وتلقى ما يسعى بالسرديات الكبرى في عز ذبوع الانصراف عنها وانشغال الفكر الغربي بنقضها والتأسيس للسرديات الصغرى.

ما حدث مع أدونيس هو أنه كان ينظر للحدثة الشعرية العربية ويؤسس لها بمفاهيم مابعد حداثة؛ على اعتبار أن كتاب (الثابت والمتحول) صدر عام 1974، وهو الوقت الذي شهد فيه الفكر الغربي رواج التفكيك، لهذا استعمل أدونيس نزعة التفكيك بمصطلحات بدائل دون استعمال مصطلحاته، ولعل هذا ما جعل القول بأن أدونيس تفكيكي قولاً مفتقدا لبعض الجرأة في الكتب النقدية⁽³⁾.

ونحن إذ نستعمل هنا مصطلح النزعة التفكيكية وليس منهج التفكيك أو استراتيجية التفكيك كما يسميها دريدا، ذلك لأن مصطلح النزعة أشمل، فهو يحيل على التوجه النقدي المراجعاتي الذي عرفته الفلسفة الغربية من خلال إعادات النظر في الصروح المعرفية الواثقة من نفسها منذ ديكرت ونقده للعقل المحض مروراً بالموسوعيين وصولاً عند فوكو وهابرماس، وبالتالي فنزعة التفكيك المقصودة هنا تتجاوز صياغة دريدا لها؛ ذلك «أن فكرة إزاحة الإنسان عن المركز وتفكيكه ونزع القداسة عنه ليست مسألة مزاج شخصي (دريدي)، أو أزمة نفسية عارضة، وإنما هي ثمرة منظومة حضارية كاملة»⁽⁴⁾، حيث استراتيجية التفكيك الدريدي في هذا السياق ما هي إلا واحدة من صياغات هذا التوجه، الذي يشكك ويطعن في وثوقية والمنظومات الفكرية.

وعليه فإن هذه الدراسة تستند في توصيفها للخطاب النقدي الأدونيسي المراجع للتراث بأنه خطاب تفكيكي المنزع أول ما تستند إلى مبدأ الوجاهة؛ فإذا كان مشروع أدونيس هو مشروع مراجعة شاملة للثقافة العربية بما فيها التراث الأدبي انطلاقاً من كونه يرى أن ثمة سلطة ماضوية تهيمن على الحاضر وتصوغه عبر أنظمة عقلية مترسبة في الوعي واللاوعي العربيين، ما يستدعي وجوب إعادة النظر فيها، فإنه من الوجاهة أولاً أن يفيد مما قدمه "جاك دريدا" كفتح جديد في هذا المجال، مجال مراجعة مقولات المنظومة الفلسفية الغربية، ونقده البنيوية على اعتبارها واحدة من تجليات هذه المنظومة المركزية، حيث يقدم دريدا استراتيجية محكمة في قراءة الخطابات ذات المنزع الميتافيزيقي السلطوي؛ بل لعله «من الوجاهة بمكان انفتاح الثقافة العربية كلها على تجربة جاك دريدا الفلسفية، والثقافة العربية ككل الثقافات تحتاج إلى معاودة النظر في ذاتها، ومراجعة ما إنبتت عليه من أسس، ومساءلة المفاهيم والتصورات التي حكمتها

ووجهت رؤيتها للعالم، إنها أحوج ما تكون إلى ممارسة ضرب من التفكيك»⁽⁵⁾، وليس جديرا بمفكر مثل أدونيس ألا يُخصب بحثه برؤى وأفكار من تناولوا ذات القضايا التي يتناولها في مشروعه، رغم أنّ أدونيس لا يحيل على مراجعه، ولا إلى الدراسات التي قاربت موضوع اشتغاله، وهو ما يصرح به حين يقول: «أثرت ألا أعتمد على الآراء والأحكام التي أصل إليها على الدراسات الأجنبية والعربية التي بحث كتابها المشكلات التي بحثتها، إنني لم أشأ أن أقرأ التراث العربي عبر آراء الأشخاص الذين قرأوه، بل شئت أن أقرأه قراءة بادئة عبر نصوصه ذاته»⁽⁶⁾، ولعل عدم تصريح أدونيس بمراجعته هو ما قد يصعب على الدراسة إنتضاء مضمرات المنهج المراد الكشف عنه.

هذا وبالإضافة إلى مبدأ الوجهة، فإنّه يمكن بسط كيفية إفادة أدونيس من فلسفة التفكيك النظرية وإجرائتها كما يلي:

3. المفهوم التفكيكي للمنهج النقدي عند أدونيس:

إنّ التفكيك - دون وصفه بالمنهج- على تعقيده، يمكن الأخذ به في أبسط مفاهيمه على أنه نزوع فكري ضد اليقين المعرفي وضد استتباب الحقيقة والتصديق بها إلى الحد الذي يرقى بها إلى درجة الميتافيزيقا، الميتافيزيقا بما هي كل نظام واثق، رافض للتقويض والهدم.

لم نصف التفكيك بالمنهج؛ لأنّ "جاك دريدا" يفرض القول بكون التفكيك منهجا؛ تنزيها له عن الوقوع في التعارض بين معناه كمتصور نظري وتحققه إجرائيا، فيكتفي بقوله: «ليس التفكيك منهجا، ولا يمكن تحويله إلى منهج»⁽⁷⁾؛ وإنما هو استراتيجية تتحين مع كل نص، بحيث يحدد كل نص آليات تفككه من الداخل؛ انطلاقا من طبيعة البنية التي تحكمه، فلكل نص إستراتيجية انهدامه من الداخل، مثاله مثال كل بناء له مرتكزاته التي تحمل ثقله وهشاشته في الوقت ذاته.

في المقابل وفي سياق حديثه عن المنهج الذي يتوخاه في مؤلفاته النقدية، يرى أدونيس أن تبني النقد أولية على تبني أي منهج؛ فيعرف المنهج بالنقد «الذي لا يصدر عن موقف إيديولوجي مسبق يتحكم به، ولا عن موقف مدرسي يضيق أفقه، وإنما

يحاول أن يقرأ النص بذاته، ويحاول أن يقدم هذه القراءة باعتبارها ليست إلا احتمالا نقديا تقويميا من احتمالات عديدة، لا يقدم مجموعة من الأحكام القاطعة»⁽⁸⁾، ولعل رفض أدونيس تأطير درسه النقدي بمنهج هو في حد ذاته استلزام لروح الرؤية التفكيكية التي لا تقدم آليات إجرائية ناجزة يمكن اعتمادها كقالب إجرائي يمكن تطبيقه على النصوص؛ كي لا يرتن بها؛ «لأنّ منهج التحليل التفكيكي عبارة عن استراتيجية لقراءة النصوص بوجهها الرصيد المعرفي للمفكك»⁽⁹⁾؛ وبالتالي فهو غير مقيد بمقولاته وضوابطه الإجرائية، لعل هذا التشابه بين المفهومين يثير شبهة تأثر الرؤية الثانية بالأولى.

هذا بالإضافة إلى الطابع النقدي الذي يتسم به خطاب أدونيس النقدي من الناحية المعرفية، والذي يرقى توصيفا إلى مستوى المكر المعرفي الذي يجادل كل ما ترسخ كبديهية، وهو ما يستند عليه التفكيك من حيث انتماؤه إلى فرع فلسفات الخطاب النقدية التي لا تؤمن بالهدنة المعرفية، وتسعى دائما إلى إعادة النظر في الصروح المعرفية الواثقة من نفسها؛ إذ «تحيل الدلالة الاصطلاحية للتفكيك على فضاء دلالي واسع يقترن بتفكيك الخطابات الفلسفية والنظم الفكرية وإعادة النظر فيها بحسب عناصرها المكونة والاستغراق فيها وصولا إلى الإلمام بالبور الأساسية المطمورة فيها، وهو ما يفترض الحاجة إلى إجراء حفريات في تلك النظم كما تجلت خطابيا وكما تشكلت تاريخيا ومعرفيا»⁽¹⁰⁾، فتعيد مراجعتها متعاملة معها على اعتبارها ميتافيزيقا متصلة، ساعية إلى نقلها من حالة الصلابة إلى حالة السيولة بتعبير عبد الوهاب المسيري، عبر مراجعة تجذيرية تعيد النظر في أصول القضايا وتاريخ تشكلها؛ ذلك أن «ثمة حاجة فلسفية يكشف عنها التفكيك تتمثل في مراجعة الأنساق والنظريات التي تزعم الامتلاء الأنطولوجي والاكتمال الإبيستمولوجي في ضرب من الوثوق والدغمائية»⁽¹¹⁾.

وقياسا على ما تقدم، فإن فعل إعادة النظر الذي يسلكه أدونيس في قراءته للتراث الأدبي والنقدي العربي وللثقافة العربية على وجه التعميم تأكيد على الصلة بين منهجه ومنهج التفكيك، حيث يرى أدونيس أنه لا بد من إحداث قطيعة مع القراءة التراثية لهذا التراث، ومع القراءات التي انبنت عليها؛ هذه القراءات التي تحولت إلى نظام

ميتافيزيقي موجه للفهم ومؤطر له، إذ « إن الخطاب النقدي الذي قدم لنا في الماضي الشعر الجاهلي، ولا يزال يقدمه هو نفسه الذي يحجبه عنا الآن»⁽¹²⁾. مشكلا بذلك مرجعية تحدد سقف الفهم، وترسم حدوده، ويرى أنه إذا أردنا قراءة الشعر العربي القديم لا بد من اعتماد قراءة راديكالية تزيح طبقات الفهم، التي تحولت إلى موجّهات إرغامية نحو فهم موحد ومحدد، وذلك بإعادة النظر إليه من زاوية أخرى غير الزاوية التي نلّظر من خلالها إليه النقاد القدامى، والتي ظلت توجه القراءات التالية لها.

4. القراءة المزدوجة:

إذا سلمنا بأنّ التفكيك في منطلقه كنزعة، وبوضوح أكثر في الصياغة الدريدية له، كان ثورة نابعة من داخل البنية المتأزّمة وضدها، فإنّ أي دراسة تفكيكية ستظل مرتبّنة بهذين المكونين التأسيسيّين (افتراض وجود بنية ونقضها)؛ ولهذا فإنّ « القراءة التقويضيّة (التفكيكيّة) هي دائما قراءة مزدوجة، تسعى إلى دراسة النص (مهما كان) دراسة تقليديّة أولا لإثبات معانيه الصريحة، ثم تسعى إلى تقويض ما تصل إليه من نتائج في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معان تتناقض مع ما يصرّح به»⁽¹³⁾، وهو ما يتخذه أدونيس منطلقا له في أول انطلاقة تأسيسية لفكرة الثابت والمتحول، حيث يطرح إشكاليّة ازدواجيّة في الثقافة العربيّة، ولكن بصيغة تعديلية، فهي ازدواجية ظاهرية تبدي لنا وجود نشأتين لهذه الثقافة؛ نشأة جاهليّة، ونشأة إسلاميّة، ولكن أدونيس سرعان ما يبطل هذه الازدواجية على هذين المستويين من النشأة ليذمّهما في قالب واحد؛ من منطلق كون «الجاهليّة تتقدم الإسلام ظاهريا؛ لكن الإسلام يتقدمها جوهريا»⁽¹⁴⁾، لأنّ الجاهليّة تُظَرّلها كقيمة من منظور الإسلام، وبعد أن يستدمج أدونيس الإسلام والجاهلية في نسق رؤية واحدة، يمنح هذا النسق الواحد اسم الثابت الذي يجعل منه مركزا مهيّما يتأسّس على النزعة الثبوتية والدغمائية (من حيث تأثيره على الثقافة) بشكل يرقى إلى الهيمنة الميتافيزيقية، ثم يخلق لهذا الثابت/المركز طرفا نقیضا كهامش يسميه متحوّلا.

وبعد هذا التمييز القطبي الثنائي، يجعل أدونيس من هذه الثنائية قطب الرحي الذي تتحرك حوله أغلب أعماله الفكرية والنقدية، بل حتى الإبداعية منها في شكل سجل جدي بين (ثابت/ مركز/ شفوية) و (متحول/ هامش/ كتابة)، وهي ذات الرؤية التي يراها "جالك دريدا" في الفكر الغربي القائم «على ثنائية ضدية عدائية تتأسس عليها ولا توجد إلا بهذه الثنائية، كثنائية: العقل/العاطفة، العقل/الجسد، الذات الآخر، المشافهة الكتابة، الرجل/ المرأة، وما إلى ذلك، وأنّ هذا الفكر دائما يمنح الامتياز والفوقية للطرف الأول ويلقي بالدونية والثانوية على الطرف الثاني، هذا الانحياز للأول على الثاني هو ما يسميه دريدا بالتمركز المنطقي»⁽¹⁵⁾، ثم ينبري لإثبات ترهل هذه التراتبية والقدر فيها.

5. نقض التاريخ التكويني لديوان الشعر العربي وإعادة بنائه:

يرى الجابري في سياق بحثه التفكيكي عن النواة التأسيسية للعقل العربي «أن عصر التدوين هو الإطار المرجعي للعقل العربي»⁽¹⁶⁾؛ وهي الرؤية نفسها التي يراها أدونيس، فيتخذها منطلقا تأسيسيا في مراجعته للتراث بعامة والشعر على وجه التحديد، معتبرا أن مرحلة الجمع والتدوين الشعريين كانت عامل توجيه للذائقة الشعرية إبداعا ومقاربة، الأمر الذي يستدعي حسب أدونيس إعادة جمع ديوان الشعر العربي مرة أخرى اعتمادا على معايير نصية نابعة من الداخل؛ لأن المدونة الشعرية التي أفرز عنها عصر التدوين لم تكن نتاج فعل إستمولوجي حيادي وبريء؛ بل تأسست على خلفيات إيديولوجية تعادي ما يراه أدونيس فنيا في جوانب كثيرة، وعليه فإن « الشعر العربي شأنه في ذلك شأن الشعر في العالم يحتاج إلى إعادات نظر دائمة في ضوء الحاضر، ويمكن اعتبار هذا الديوان فاتحة هذه الإعادات، فما سبقه باستثناء حماسة أبي تمام كان جمعا تقليديا يؤكد المقاييس السائدة والذوق الشائع»⁽¹⁷⁾، لهذا استبعد أدونيس العامل السياسي التاريخي الذي يعتمد النقد القديم في تحقيب الشعر تحقيبا أعصريا، والذي قام « على قراءة تبسيطية تقسم الشعر إلى عصور تاريخية وفقا للتسلسل الخطي...، والحق أن زمن الشعر زمن عمودي لا أفقي»⁽¹⁸⁾، وأعاد تحقيب الشعر العربي تحقيبا جديدا، فقسمه إلى ثلاثة أجزاء معتمدا في ذلك على نسق

خصوصية داخلية سماها بروح الشعر، معتضدا في ذلك على اعتبار أن اللغة العربية بعامة، ولغة الشعر بخاصة لغة انبثاق وتفجر، وليس لغة منطق وترباط سببي، ولهذا فإن أي منطق خارجي يحتكم إلى الترابط السببي كالعامل السياسي مثلا لا يمكنه أن يكون معيار تصنيف للشعر.⁽¹⁹⁾، وهو بذلك يكرس مانيفيستو (بيان) التفكيك الشهير «il n ya rien hors du texte»⁽²⁰⁾، الذي يستبعد كل ما هو خارج النص في التعاطي مع النص.

وبناء على هذا التحقيب الجديد النابع من خصوصية النص الشعري قسم أدونيس ديوان الشعر العربي إلى ثلاث مراحل، ومن خلال هذا التقسيم ميز بين ثلاث مراحل لا زمنية فارقة في قاطرة سيرورة الشعرية العربية وعدّها نسقا مضمرا متحكما فيها، وهي مرحلة القبول، مرحلة التساؤل، ومرحلة الكتابة، ومن خلال بسطه لتصوره لهذا التقسيم بين خصائص كل مرحلة، ومن خلال بيانه ذلك تجلّى بوضوح صراع ثنائية المركز والهامش، وبيان ذلك كالآتي:

1.5. مرحلة القبول/ شعرية الشفوية /المركزية الصوتية:

تمتد هذه المرحلة حسب أدونيس من الشعر الجاهلي حتى العباسي مع بعض الاستثناءات، لأن التصنيف نوعي وليس زمنيا، حيث الشعراء المتجايلون وفق التعصير الزمني ليسوا بالضرورة متواجدين على مستوى مرحلة واحدة؛ إذا هم لم يتقاسموا الهاجس المولد لقول الشعر، حيث القبول هاجس من خصائصه؛ القبول بالواقع حسيا دون تأويل، والتسليم بسلطة الدهر والعجز حياله وبالتالي القبول به، والقبول حتى بسلطة اللغة والانخراط في الاحتذاء قبولا⁽²¹⁾.

هاجس القبول حسب أدونيس يمثل إبستيمية أو نموذجا إرشاديا أسس لذائقة شعرية ظلت متحكمة في سنن القول الشعري، هي ما أسماها بالشعرية الشفوية، ذات المنزع الصوتي؛ قاصدا بالشفوية أن الشعر العربي نشأ شفويا ضمن ثقافة صوتية سماعية، يُتلقى سماعا ويُتناقل سماعا، ويمكن إنتضاء خصائص الشفوية كما قدمها أدونيس عبر توصيف إنشائي لها في النقاط الآتية:

- شعرنشأ ضمن ثقافة صوتية يلقي نشيدا ويتلقى سماعا.
- الدال في شعر الشفوية هو الكلمة مضافا إليها الصوت؛ حيث الدلالة الشعرية بموجب ذلك دلالة صوتية.
- شعر الشفوية هو فن خاص بالقول، قوامه الدوال الصوتية وطريقة التعبير والإفصاح؛ وليس المدلولات المعبر عنها؛ لأن المدلولات مشترك عام، والشاعر الشفوي لا يخاطب الناس بما لا يعلمون؛ بل يخاطبهم بما يعلمون، وشعره ليس شعر ذات بل شعر جماعة.

وعلى هذه الخصائص الشفوية والقول لأدونيس « تأسس في العصور اللاحقة النقد الشعري في معظمه وتأسست النظرة إلى الشعرية العربية نفسها »⁽²²⁾، وتأسست مركزية صوتية هيمنت على قول الشعر وتلقيه ومقارنته، فالنقد البلاغي كله متمركز حول الكيفية وعلى طرق القول، والنحو حماية للصوت من أن ينكسر باللحن، والعروض حماية للإيقاع، وكل ذلك تأثيل لثقافة الصوت ومركزيته، « وهكذا نُظر إلى الشعر نقديا عبر معيار التأثير المطرب، وبنيت الشعرية على جمالية الإسماع والإطراب »⁽²³⁾، ووطدوا العلاقة بين الشعر والصوت، حتى جعلوا الشعر منحصرًا في مفهوم القصيد الذي جعل منه العروض طقسًا شكليًا صوتيًا.

2.5. مرحلة التساؤل/صوت الهامش:

- يقدم أدونيس التساؤل كمرحلة انتقالية وسطى بين الشفوية والكتابة، يقدمه كصوت غير مرتفع، متساكن مع مرحلة القبول ومشاكس لها، يحيا في شكل هامش يناور ضد مركزية صوت الشفوية، يرفض القبول، ولكنه لا يقوى على إحداث ثورة في ظل هيمنة المركزية الشفوية، هذا الصوت الهامش يرى أدونيس أنه تجسد من خلال عدة نماذج، نذكر منها نموذج امرئ القيس من خلال خرقه لثلاثة نماذج قيد الاحتذاء:
- نموذج الأخلاق: فكان متعمرًا بشعره، لا يعبأ بالمواضعات الأخلاقية.
 - نموذج المعاني: إذ كان يغرب في طرحه، ويربك قرائن الإسناد فيخرج عن مواضعات الدلالة.

- نموذج التعبير؛ وذلك بعصيان الثقافة الصوتية، والنظام الصوتي للقصيدة⁽²⁴⁾.

3.5. مرحلة التحول/تحيين الهامش/تأسيس الكتابة:

تتخذ الكتابة من الفضاء القرآني حسب أدونيس أفقا لها، على اعتبار أن جذور الحداثة الشعرية العربية بخاصة والحداثة الكتابية بعامة كامنة في النص القرآني من حيث إنّ الشعرية الشفوية تمثل القدم الشعري المهيمن، بينما يمثل الفضاء القرآني - كنص الخطابات القرائية الناشئة حوله- تأسيسا لمبادئ جمالية جديدة مغايرة هي:

- نقض مبدأ الاحتذاء.

- اشتراط سعة الثقافة في الشاعر وعدم الاحتفاء بالارتجال والبداهة ، واعتبار الشعر ظاهرة فردية وليس طقسا جماعيا.

- تعطيل معيار السبق الزمني بين قديم الشعر ومحدثه والاحتكام إلى الجودة.

- نشوء جمالية لا ترى في الوضوح قيمة وإنما في الغموض.

- إعطاء الأولوية لحركة الإبداع والتجربة⁽²⁵⁾.

ويستخدم أدونيس الكتابة كما يراها "تيري إجيلتون" في علاقتها بالتفكيك «إن الكتابة أو القراءة- بوصفها كتابة- هي آخر ملاذ غير مستعمر يمكن للمثقف أن يلعب فيه»⁽²⁶⁾، ولذلك فإن اعتبار أدونيس الفضاء القرآني فضاء للكتابة كان من منطلق كون مباحث النص القرآني صرفت النظر حول المركزية الصوتية، وهو ما يجعلها ضمن الرؤية التفكيكية .

ويدعو أدونيس في نهاية مراجعته الماسحة للتراث العربي إلى مقترح جنس من الإبداع يسميه بالكتابة دون تحديد هويته هل هو شعراً نثر، ولعل مؤلفه الموسوم بـ (الكتاب) هو أحسن تجسيد لهذا البديل عن القصيدة، وهو المعادل الشعري للفكرة التي حاول أدونيس بلورتها من خلال كتابه الثابت والمتحول وكل الكتب التي تدور في فلك هذه الفكرة، هذا الكتاب الذي « لا يمكن النظر إليه بوصفه مجرد عمل شعري جديد يضاف إلى الأعمال الشعرية السابقة، بل بوصفه مشروعاً فكرياً ومعرفياً وإبداعياً

مركبا يختلط فيه الشعر بالنثر، والفلسفة بالتاريخ، والذاتي، والجماعي»⁽²⁷⁾، وهو نوع من الكتابة يتجاوز الصنافة الأجناسية، واستخدامه لتسمية الكتابة هو استلهاً للروح المفهومية التي اكتسبها مصطلح الكتابة التي تتجاوز مفهوم الرسم الإملائي لتأخذ الدلالة النقدية الجديدة بما هي ذلك « النص الإبداعي الذي لا ينتهي إلى أي جنس معين، وإنما تتنوع بتنوع الأجناس فيه، وتتجانس الأنواع»²⁸، وهو ما يتقاطع مع المفهوم التفكيكي للكتابة على اعتبارها « غير نقية على الدوام، وهي بذلك تتحدى فكرة الهوية»²⁹ أين يكون جزء من هذه الهوية موزعا في هويات أخريات ومحض أثر لها.

ولأن التأسيس يتنافى وفكرة التجاوز التي هو من صميم موقف أدونيس من كل نموذج يرقى بنفسه إلى درجة الميتافيزيقا، بما هي نموذج يكرس الاحتذاء، لهذا يجعل أدونيس فكرة التجاوز جوهرية ومؤسسة لمفهوم الشعر كفاعلية إنسانية؛ حيث « يجعل من الشعر هويته الخاصة التي تتجاوز كل هوية أخرى مكتسبة أو مفروضة، إنه فاعلية التحول الأولى وشرارة الحريق في تبن مقولاتنا، إنه اللغة المشتركة للإنسان في كل زمان ومكان، الإنسان القلق الباحث المنشطر المتشطي، المهموم دوماً بمشكلاته اللامتناهية، والتي ما فتئت تزداد تعقيداً»³⁰، فيحرره من كل الخصائص القارة والمحددة والضابط لحركيته، أين يغدو الشعر بموجب ذلك فاعلية فنية، وطقساً رمزياً، وضرباً من الكشف، وهما للاحتذاء، وهو في ذلك يحرر مقترح نظريته في الشعر من أن تنطلي عليه حيلة تشييد الصروح الميتافيزيقا النظرية، والتي هي ليست من صميم نزعة التفكيك، بما هو تحرير للفكر من التبنين (من البنية) والتنظير.

6. خاتمة:

هكذا، ومما تقدم يتضح لنا أنّ أدونيس كان تفكيكي النزعة في قراءته للتراث؛ بدءاً من انطلاقه من رؤية جينياالوجية فاحصة للمسلمات المترسبة في اللاوعي القرائي للتراث، والتي تأسست على السرد التاريخي؛ حيث نقض مفهوم التاريخ التكويني للظواهر الشعرية التراثية، واضعاً إياه على مشرحة إعادة النظر؛ إذا قام بقطيعة مع المفاهيم المتقدمة للتراث الشعري، فنقض الصنافة التي رتبت ديوان الشعر العربي وفقاً

للمشروطة السياسية التي بالرغم من وقوعها خارج النص إلا أنّها رغم ذلك تحكمت في تصنيفه، وأعاد بناءه وفقا لمعيار الهاجس الذي يحرك العملية الشعرية من الداخل، ثم انتقل إلى التمييز بين طرفي ثنائية الكتابة والشفوية فأثبت تهاافت مقومات النزعة الشفوية ذات المتزع الهوميري الذي يعلي من خصائص النشيد، وأعاد الاعتبار لنزعة الكتابة، وانطلاقا من هذا قام بتغيير المراكز وحين الهوامش فقونن الشعرية المتوثبة في روح النصوص الصغرى التي تم تحييدها من طرف نصوص كبرى ذات سلطة نموذجية احتكرت معايير الشعرية بتواطؤ إيديولوجيات رقابية، وفي ذلك كله لم يكرس أدونيس هذه الهوامش المرتفعة في مقترح نظرية صارمة كي لا يتناقض مع فعل التفكيك الذي يعادي في منطلقاته التنظيرية سعيه إلى تشييد مركزيات بدائل؛ بل حرر فعل التشعير من كل قيد، مؤسسا بذلك لما أسماه بالكتابة كبديل أجناسي عن النماذج المركزية يقو على مفهوم مرن ومتحول للظاهرة الشعرية في ظل ما أسماه بأفق الحداثة/ الرؤيا.

7. الهوامش:

- 1_ لعل عدم إحالة أدونيس على المراجع التي يصدر عنها هو ما دفع بالناقد كاظم جهاد إلى اتهامه بالانتحال، وقد محض لهذه المهمة كتابا بعنوان: (أدونيس منتحلا، دراسة في الاستحواذ الأدبي، وارتجالية الترجمة)، حاول من خلاله تقفي أصول الأفكار التي يؤسس عليها أدونيس مواقفه، وقام بردها إلى مصادرها
- 2- فتحي التريكي، عبد الوهاب المسيري، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2012، ص 27.

3- من بين الكتب التي قدمت عملا جرديا فيما يتعلق بالتفكيك في النقد العربي، الكاتب والمفكر البحريني محمد أحمد البني، والذي اعتمد في كتابه على الارتسامية المباشرة للفكر التفكيكي في كتابات النقاد العربي إما نقلا أو شرحا أو إجراء وتطبيقا ، ولم يأت على ذكر أدونيس فيمن ذكر من النقاد حتى تحت عنوان (وجود تأثيرا بارزة أو متفاوتة للتفكيك في النقد العربي)، ينظر محمد أحمد البني، دريدا عربيا (قراءة

- التفكيك في الفكر النقدي العربي). وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطني، ط1، مملكة البحرين، 2005، ص 88 وما بعدها.
- 4- فتحي التريكي، عبد الوهاب المسيري، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2012، ص 16.
- 5- سامي الغابري، تفكيك الميثافيزيقا وبناء الإتيقا في فلسفة جاك دريدا، دار الخليج للصحافة والنشر، ط2، الأردن، 2017، ص 17.
- 6- أدونيس، الثابت والمتحول (بحث في الإبداع والاتباع عند العرب)،الأصول، دار العودة، ط4، بيروت، 1983، ص 23، 24.
- 7- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، تر، كاظم جهاد، دارتوبقال للنشر، ط2، 2000، ص 61.
- 8- أدونيس، زمن الشعر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، بيروت لبنان، 1986، ص 297.
- 9- خوسي ماريا باثويلو إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، تر: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، دط، القاهرة، ص 147.
- 10- محمد شوقي الزين، جاك دريدا: ماذا الآن؟ ماذا الغد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب، منشورات الاختلاف، دار الفارابي، ط1، بيروت، لبنان، 2011، ص 78.
- 11- سامي الغابري، تفكيك الميثافيزيقا وبناء الإتيقا في فلسفة جاك دريدا، ص 135، 134.
- 12- المرجع نفسه، ص 30.
- 13- سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، (إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، 2000، ص 54.
- 14- أدونيس، الثابت والمتحول، الأصول، ص 35.
- 15- سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص 54.

16_ محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، (تكوين العقل العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط10، بيروت، لبنان، 2009، ص 253.

17_ أدونيس، ديوان الشعر العربي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت لبنان، ج1، 1968، ص13.

18_ أدونيس: كلام البدايات، ص 19، 20.

19_ في السياق ذاته يرى ميشال فوكو وفق تصوره الحفري لفعل المراجعة التاريخية للظواهر، وهو يعكس بذلك الموقف ما بعد الحدائي من التاريخ، و الذي كانت التفكيكية أول تأسيس له، يرى أنه «علينا أن نضع من جديد موضع سؤال هذه التركيبات الجاهزة، ونطرح ثانية للبحث تلك التجميعات التي درجنا على تقبلها دون إعمال للفكر النقدي، ومراجعة تلك الروابط التي نقر هكذا بوجودها من البداية؛ يجب إزاحة هذه الصور وتلك القوى الغامضة التي جرى العرف على اتخاذها أداة للربط بين خطابات البشر»، ينظر: ميشال فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، لبنان، 2005، ص 22.

20_ J . derrida ,de la grammatologie, Édition minuit, paris, 1967, p13.

21- ينظر أدونيس ، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، ط3 بيروت، 1989، ص 29.

22- أدونيس، الشعرية العربية، دار العودة، الآداب، ط1، بيروت، 1985، ص13.

23- أدونيس، الشعرية العربية، ص23.

24- ينظر أدونيس، الثابت والمتحول، الأصول، ص207، 208.

25- أدونيس، الشعرية العربية، ص 50، 51.

26_ إيجلتون تري، مقدمة في نظرية الأدب، تر: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، القاهرة، 1991، ص 171.

27_ حبيب بوهرور، تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني (قراءة في آليات بناء الموقف النقدي والأدبي عند الشاعر العربي المعاصر)، جدارا للكتاب العالمي، دط، عمان، الأردن، 2008، ص 173.

- 28- يوسف وغليسي، علم الكتابة في الفكر التفكيكي المعاصر (قراءة اصطلاحية)، مجلة الآداب العالمية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، العدد 129، 2007، ص 16.
- 29 جون ليتش، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا (من البنيوية إلى ما بعد الحداثة)، تر: فاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2008، ص 225.
- 30 سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب (قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة)، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، لبنان، 2008، ص 29.